بمناسبة الذكرى الثانية

على محمود طه في شرقياته

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

— ١ —

لا أريد أن أتحدث في هذا المقال عن شاعر مصر الكبير المرحوم على محمود طه كعميد شعراء الغناء العربي منذ امرئ القيس حتى الآن، ولا أريد أن أبين مواطن الجمال والإبداع في دواوينه النفيسة التي أصدرها والتي تضمنت الشئ الكثير من شعره في وصف الطبيعة والمرأة، ولكنني أود ان أقصر كلمتي هذه على شعره السياسي الذي قاله في مناسبات عديدة ؛ والتي أوحت به إليه أحداث الشرق العربي المتطلع إلى الحرية والثائر على الظلم والظالمين ، لأبدد تلك الفكرة التي تطغى على الأذهان. وهي أن المرحوم شاعر الجندول لا يجيد غير وصف الطبيعة والغزل بدليل قوله :

حياتي قصة بدأت بكأس   لها غنيت وامرأة جميلة

وأنه لم يشارك الشعب آلامه وأحزانه ، ولا العربية جمعاء في ثورتها التحررية الكبرى ، وأنه لم يكن في مجال هذه المشاركة كأميره شوقي بك الذي يقول :

كان شعري الغناء في فرح الشر   ق وكان البكاء في أحزانه

وأن ما قاله في هذا المضمار لا يتعدى الأبيات التي مجد بها مصر . أما الشرق فقد تركه وراء ظهره ..

هذا ما يقوله عندنا بعض المغرورين الجاهلين الذين لم يقرأوا للشاعر غير ديوان واحد أو ديوانين، ولو كانوا من المتتبعين لقراءة نفائس الشعر العربي الحديث لعلموا أن لصاحب « أرواح شاردة » ديوانا نفيسا يضم طائفة صالحة مختارة من شعر الملاحم والحروب ، والدم والثورة، والجهاد والاستقلال، وهو « شرق وغرب » الذي أصدره المرحوم سنة ١٩٤٧ إلى الوجود ، وبصدوره أضاف إلى ذخيرة الشعر العربي الحديث ذخيرة أخرى جديرة بالدراسة والحفظ والإعجاب

يقع هذا الديوان في ١٨٢ ص ويقسم إلى قسمين : القسم الأول باسم « أصداء من الغرب » والقسم الآخر باسم « أصوات من الشرق » ونحن نترك الغرب لعشاق الغناء والمرأة والألحان ، لنأخذ بالتحدث من الشرقيات وخصوصا في هذه الظروف التي يمر بها الشرق؛ وبعد نكبة العرب بالديار المقدسة على رغم أنف الجامعة العربية ذلك المخلوق الكسيح الهزيل

وأول قصيدة من شرقيات شاعر زهر وخمر هي « إلى أبناء الشرق » ومطلعها هذا

دعوها منى ، واتركوه خيالا   فما عرف الحق إلا النضالا

ينبيك بصيحة الشاعر الخالصة المرجوة إلى أبناء الشرق الإسلامي الذين كانوا يتطلعون إلى قضية فلسطين تطلع الخائف، مرتقبين مصيرها في حذر وفرق؛ وهل يعرف الحق إلا الكفاح؛ إذن إلى حمل السلاح على لسان الشاعر

بني الشرق ماذا وراء الوعود   تطل يمينا وترنو شمالا
وما حكمة الصمت في عالم   تصيح المطامع فيه اقتتالا
زمانكمو جارح لا يعف   رأيت الضعيف به لا يوالى
ويومكمو نهزة العاملين   ومضيعة الخاملين الكسالى

ولكن أبناء الشرق الذين فتحوا العالم ، وأدبوا الغرب وكسروا شوكة الصليبيين؛ لايلبون النداء الحار، فيهتف به الشاعر مذكراً

ألسنا بني الشرق من يعرب   أصولا سمت وجباها تعالى
أجئنا نسائل عطف الحليف   ونرقب منه الندى والنوالا ؟

ولكن الشرقيين كما عهدناهم في هذا العصر لا يغضبون لأن الحاكمين تحت إمرة الأجنبي علمهم الخنوع والكسل، ولكن الشاعر يذكرهم ويذكر الخلفاء

فلسطين مالى أرى جرحها   يسيل ويأبى الشفاة اندمالا
وافريقيا ما لإسلامها   يسام عبودية واحتلالا
على تونس ومراكش   تروح السيوف وتغدو اختيالا

ويسترسل الشاعر في وصفه حتى يختم تلك الملحمة الرائعة

بهذا الدعاء المضطرم بالإخاء والإيمان

بني الشرق كونوا لأوطانكم   قوى تتحدى الهوى والضلالا
أقيموا صدوركم للخطوب   فما شط طالب حق ونالا

وقد كان الشاعر في سرير مرضه عندما بدأ بإثارة شعور إخوانه العرب عامة والمصريين خاصة في سبيل طردهم المستعمر الغاشم ورد حقهم السليب، فقال في الختام

فزعت لكم من وراء السقام   وقد جلل الشيب رأسي اشتعالا
وما أن بكيت الهوى والشباب   ولكن ذكرت العلى والرجالا

نعم لقد بكيت الرجال. وحق لك أن تبكي الرجال في مواطن خلت إلا من أشباه الرجال ..

وفي «يوم فلسطين» وهي القصيدة الثانية من الشرقيات؛ يصور الشاعر غضب الأمة العربية في إضرابها العام الذي صدر في اليوم الثاني من نوفمبر سنة ١٩٢٥ حداداً واحتجاجا على وعد بلفور المشئوم. ويكبر البطولة والشجاعة في الفلسطينيين الأحرار الذين استشهدوا في سبيل بلادهم ويمجد الشعب الفلسطيني المناضل، في جهاده الطويل وصبره على الشدائد، وإبائه وعدم خنوعه إلى الأجنبي طيلة أيام الثورة، فيهتف من صميم قلبه

فلسطين لا راعتك صيحة مغتال   سلمت لأجيال، وعشت لأبطال
ولا عزك الجيل الفدى ولا خبت   لقومك نار في ذرائب أجيال
سرت باديات الشرق تحت غبارهم   على خلجات الروح من تربك الغالي
فوارس يستهدي أعنة خيلهم   دم العرب الفادين والسؤدد العالي

ثم يتطرق إلى وصف الشرق صبيحة التقسيم بهذا الوصف الرائع

هو الشرق لم يهدأ بصبح ولم يطب   رقاداً على ليل رماك بزلزال
غداة أذاعوا أنك اليوم قسمة   لكل غريب دائم التيه جوال
قضى عمره رجم المواطن واسمه   مواطنها - ما بين حل وترحال
وما حل دار أفيك يوما.. ولا هفت   على قلبه ذكراك من عهد أسرال

أى والله يا صاحب اللاح التائه!! إن النكبة التي مني بها العرب في فلسطين يوم سلط عليها الإنجليز والأمريكان شذاذ الآفاق، الناجيس الرعاديد، ستبقى مطبوعة في كل قلب حر ما دام للوطن العربي الكبير بقاء؟ وإن الأرض المقدسة التي حلها أوباش اليهود التائهين لا تتطهر إلا بظهور عظيم كبختنصر؟ ويطل كصلاح الدين وفارس كابن الوليد، لكي يعيد مجد فلسطين كما كانت في عهد عمر، ومعاوية، والرشيد

ثم يختم قصيدته مخاطبا الغرب بقوله

ويا أيها الغرب المواعد لا تزد   كفى الشرق زاد أمن وعود وأقوال
شبعنا وجعنا من خيال منمق   ومنه اكتسينا، ثم عدنا بأسمال
فلا تعذب الضعفى وتغصب حقوقهم   فتلك إذا كانت.. شريعة أدغال

وهل فات الشرق أن الغرب لا يعرف إلا الظلم والدم والنار، وأن ما سنه من حقوق لا يتعدى حبراً على ورق ولا تطبق عنده إلا الشريعة الغاب. وقانون الرجل الأول؟! ..

«وفي مساء يوم الخميس المصادف ٢٠ يونيه سنة ١٩٤٦ تفاجأ مصر والعالم العربي قاطبة مفاجأة سارة بظهور مفتي الديار الفلسطينية السيد أمين الحسيني في قصر عابدين العامر لاجئاً إلى ساحة البيت العلوي الكبير الكريم بعد خروجه خفية من باريس بنحو أسبوعين، وقد أمنه الفاروق العظيم على حياته وأكرم وفادته. الخ» (١) فما كان من الشاعر إلا أن حياه بقصيدة رائعة تعد من عيون الشعر الحديث يفتتحها بهذا المطلع الجبار

حييك في الشرق آمال وأحلام   وقبلتك جراحات وآلام

الذي يصف فيه أجمل وصف شعور الشرق باستقبال المجاهد الكريم؛ وكذلك وصف الديار المصرية التي ترحب بكل طريد عربي.. ويا ليتنا كنا أحد الذين يقضون البقية الباقية من حياتهم فيها وبين أهلها الأحباء الكرام .. فيقول

ديار «فاروق» من يلجأ لساحتها   فقد حمته من الأحداث آجام
يطيب للعربي المستجير بها   معاشه ويرق الماء والجام
ويحطم القلم العاني بحومتها   أصفاده، ويفك القيد ضرغام

وحسب مصر، أن أرباب الفكر، وأصحاب العقائد، وحملة مشاعل الحرية والأدباء والشعراء لا يضطهدون أو يعذبون، وحسب الفاروق شرفا أنه أصل هذا الكرم العتيد والمجد الرفيع والبناء الضخم الوطد الأركان.. ولا أريد أن أسترسل في وصف هذه الأبيات الرائعة أو أثرها في النفس والشعور؛ وقيمتها في

(١) من مقدمة قصيدته «من الأعماق» ص ٨٦ «الديوان»